الحفاظ على الطابع والعلاقات البصرية في المواقع ذات القيمة التراثية (حالات دراسية في القاهرة الكبرى)

د.م. ناجية عبد المغنى سعيد*

المقدمة:

إن الحفاظ على التراث القومي والإنساني لا يكون بالحفاظ على النصب والمقتنيات فحسب وإنما يمتد ليشمل الحفاظ على المواقع ذات القيمة التراثية سواء كان ذلك التراث طبيعياً أو حضارياً.

كما أن حركة الحفاظ على التراث في العالم تمخض عنها المفهوم الشمولي للحفاظ على التراث الذي يضمن اعتبار جميع العناصر التاريخية والثقافية والبيئية سواء التي صنعها أو أقامها الإنسان، أو كانت موارد طبيعية وارتباطها بالتخطيط الناجح لاحتياجات مستقبلة تتبع حركة المجتمع وتطوره.

ولا أحد ينكر الجهود المبذولة لصيانة النصب والمقتنيات التاريخية في مصر ولكن هذه الجهود لا تقف حائلاً دون التعديات المستمرة على المواقع ذات القيمة التراثية مما يشوه المحيط الأثري أو يحدث تغيرات غير متلائمة مع طابع الأثر وقيمته التاريخية. كما أن هناك فراغات عمرانية تمثل جزءاً لا يتجزأ من النسيج العمراني للمواقع ذات القيمة التراثية أصبحت عرضة لغزو تجاري غير مسبوق أو تدخل من قبل المحليات دون ضوابط أو خلفية عملية ودون التنسيق مع أو الرجوع إلى الجهات والخبرات الفنية المتخصصة.

من هذا المنطلق نعرض في هذا البحث دراسات لبعض المواقع ذات القيمة في القاهرة الكبرى وما كانت عليه وما أصبحت فيه وما يمكن أن تكون عليه لو أحسن التعامل معها والحفاظ على الطابع والقيم البصرية فيها ودور منسق المواقع في هذا المجال.

المفهوم الشمولي للحفاظ على التراث:

إن مفهوم التراث الإنساني لم يعد محدوداً في المقتنيات الأثرية داخل المتاحف الحضارية أو بالنُصب والشواهد القائمة عبر العصور والأزمنة شاهدة على تعاقب حضارات البشر وثقافاتهم وإنما امتد ليشمل المواقع ذات القيمة التراثية.

وينص ميثاق البندقية في مادته الأولى على أن "الفكرة المجردة لمفهوم النصب التاريخي لا تشمل العمل المعماري المنفرد فحسب وإنما الوضع الحضري أو القروي الذي يعثر فيه على دليل لحضارة معينة أو تطوير جوهري أو واقعة تاريخية. وهذا لا ينطبق على الأعمال الفنية العظيمة فقط وإنما على الأعمال المتواضعة أيضاً والمتوارثة من الماضي والتي اكتسبت أهمية ثقافية بمرور الزمن" [1].

كما تنص المادة الرابعة عشرة على وجوب أن تكون "مواقع النُصب التاريخية موضعاً لعناية خاصة من أجل حماية كمالها ونزاهتها والتأكد من إظهارها وعرضها بالشكل

---

* استشاري الإسكان وعمارة البيئة.

[1] ميثاق البندقية الصادر عن المؤتمر العالمي الثاني للمهندسين المعماريين والفنيين للنصب التاريخية – البندقية من ٢٥ إلى ٣١ مايو ١٩٦٤.

اللائق، وأنه ينبغي أن تتم أعمال المحافظة والتجديد المنفذة في أماكن كهذه على ضوء المبادئ الموضحة في المواد المتعلقة بالنُصب ذاتها.

إن الحفاظ على الطابع والعلاقات البصرية في المواقع ذات القيمة التراثية يرتكز على عدة ركائز، أهمها وأولها هو المفهوم الشمولي للحفاظ على التراث والذي يتجه نحو التفسير الأشمل للتراث باعتبار جميع العناصر التاريخية والثقافية والبيئية سواء التي صنعها الإنسان، أو كانت موارد طبيعية وارتباطها بالتخطيط الناجح لاحتياجات مستقبلية.

وثانيها أن هناك فراغات داخل الحيز العمراني وخارجه لابد من الحفاظ عليها وحمايتها من التعديات والمتغيرات غير المرغوبة. سواء كانت هذه الفراغات حدائق تراثية أو ممرات رئيسية تمثل محاور بصرية تتوسط أو تربط بين مواقع ذات قيمة تراثية ومنها الحوم الأثري الذي هو بمثابة القاعدة للنصب أو العلامات المميزة في التراث الإنساني، ومنها ضفاف الأنهار العريقة كنهر النيل (أطول أنهار العالم الطبيعية)، وعجائب الطبيعة في الوديان والصحراء أو الجبال والصخور والغابات أو شواطئ البحار وخلجانها.

أما الركيزة الثالثة فهي النظرة الكلية للموقع وما يميزه من خصائص وعلاقات مما يستوجب الحفاظ عليها ولو تفاوتت أو اختلفت قيم العناصر المكونة للمجموع.

العلاقات البصرية في المواقع ذات القيمة التاريخية:-

يذكر الأستاذ الدكتور/ علي رأفت في ثلاثية "الإبداع المعماري" أن العمل المعماري جزء من محيط عمراني أكبر وأشمل وأن هذا المحيط يمثل الحيز الذي يحيط بالمبنى بما فيه من مبان وفراغات ومسارات وتقاطعات وميادين ومساحات خضراء، وغيرها من العناصر التي تحدد موقع وموضع المبنى في النسيج الحضري كما أنها تحدد طابع المبنى وشخصيته واتصاله بحيز المدينة وأن المشاهد يتمتع بصرياً بالنسيج العمراني العام للمدينة خاصة عندما يكون ظاهراً وواضحاً ومتجانساً أمام عينه، وعندئذ يحدث لديه إدراك لصورتها البصرية وشعور بإبداعها [٢].

إذا كان ذلك هو المنشود بالنسبة للنسيج العمراني عموماً فما بالنا بالنسيج العمراني للأحياء التاريخية والمواقع ذات القيمة التراثية وأهمية الحفاظ عليه وعلى خصائصه المميزة، ولا يفوتنا أن ننوه إلى البعد الزمني ودوره في تعميق الانطباع البصري والوصول إلى التأثير المطلوب عن طريق المتتابعات الفراغية. وتتكامل المتتابعة الفراغية المبدعة في التواؤم بين مقدماتها ومساراتها وذروتها ونهاياتها.

ويتأثر الزائر بالمدينة من خلال السير في طرقها المختلفة عند رؤية مبانيها على اختلاف أنواعها. هذه المباني تبعث فيه التأثيرات المختلفة بصرياً وعاطفياً وفكرياً وخاصة إن كانت تعبر عن وظيفتها وعن دورها في المجتمع ومقياسها العادي أم الشخصي أم التذكاري(٢).

إن العلاقات البصرية تتمثل في خصائص محددة وواضحة نلخصها في الآتي:-

- المقترب Approach أو الفراغات التمهيدية لدخول المواقع أو المبنى أو النصب.

---

[٢] **ثلاثية الإبداع المعماري" أ.د./ علي رأفت – مركز أبحاث اتركونسلت، القاهرة – جمهورية مصر العربية ١٩٩٧.**

- المحور البصري الذي يربط العناصر بعضها البعض في تتابع واتزان.
- خط السماء الذي يميز حدود الكتل وارتفاعاتها.
- علاقة الكتل وتوازنها وتكاملها ومقاييسها.
- العلاقات اللونية (التوافق – التباين).
- الخلفية الطبيعية والمبنية.
- الربط بين العناصر المميزة.

حالات دراسية في القاهرة الكبرى وضواحيها:

فيما يلي عرض لبعض الحالات الدراسية لبعض المواقع ذات القيمة التراثية في القاهرة الكبرى وما انتابها من تغيرات بهدف الاستفادة من أخطاء الماضي ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه أو الحفاظ على ما تبقي من إيجابيات وإعادة تأهيل أو استصلاح ما أفسده الدهر وما وصلنا إليه من أوضاع سلبية. وهذا الإنقاذ لا يأتي إلا بتظافر جهود المهتمين والمتخصصين، ولابد من الإشارة هنا إلى الدور الهام والحيوي الذي يمكن أن يقوم به ذوو الخبرة من منسقى المواقع Landscape Architects حيث إن مهنة عمارة البيئة وتنسيق المواقع في نهاية القرن التاسع عشر كمجال تخصص علمي ومهني واتفق على أنها تعتبر "فن تصميم وتخطيط أو إدارة الأراضى وتنسيق عناصر البيئة العمرانية مع عناصر البيئة الطبيعية على أن يتم ذلك بواسطة تطبيق المعرفة العلمية والتراث الحضارى بهدف الحفاظ على المصادر والطاقات ولأجل توفير بيئة نافعة وسعيدة"[٣].

الموقع الأول: جامعة القاهرة والمحور الرئيسي المؤدي إليها:

جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول سابقاً) والتي تأسست في عام ١٩٠٨، تقع على امتداد محور بصري وممر رئيسي يربط بين تمثال نهضة مصر للفنان محمود مختار وبين المبنى الرئيسي وبه قاعة الاحتفالات الكبرى للجامعة بقبتها الشهيرة شكل (١)، (٢). ويحف هذا المحور من الجانبين اثنان من أعرق الحدائق التراثية في القطر المصري وهما حديقتا الأورمان والحيوان اللذان أنشأهما الخديوي إسماعيل مع افتتاح قناة السويس. وظل هذا الممر محتفظاً بطابعه المميز تتوسطه الجزيرة الخضراء وتحفه الأشجار حتى بلغت كثافة المرور الآلي شدتها خاصة في أوقات الذروة وظهر الاحتياج إلى توسعة الشارع وإيجاد أماكن لانتظار السيارات مع زيادة عدد المستخدمين والمرتادين للجامعة وتم قطع غالبية الأشجار على جانبي الطريق واقتطاع جزء كبير من الرصيف لتوفير أماكن انتظار السيارات.

وقد تم إدخال تغييرات أخرى على الجزيرة الوسطى وحبست الرقعة الخضراء داخل أسوار من الطوب والحديد وأقحم عليها لافتات الإعلانات التجارية سواء المباشرة أو المرتبطة بنافورة أو تكوين صخري بمقياس لا يتناسب مع طبيعة المكان شكل (٣)، (٤)، (٥)، (٦)، (٧).

وقد أضيف للجزيرة الخضراء المواجهة لتمثال نهضة مصر فضلاً عن السياج الأخضر المرتفع، أضيفت أعمدة الإنارة وصناديق الكهرباء مما يشوه المدخل Approach لهذا التمثال القيم.

---

[٣] أبحاث من ندوة المدينة العربية" الأستاذ صفي الدين حامد – المعهد العربى لإنماء المدن.

والحل أن يتم استصلاح هذا الممر ليعود إلى أصله التاريخي وأن تحول أماكن انتظار السيارات إلى جراجات متعددة الطوابق في بعض الأراضي الفضاء القريبة أو تحت الأرض.

الموقع الثاني: المبنى القيم المواجه لفندق مينا هاوس:

يبين شكل (٨) مبني سكني خاص لعائلة أجنبية (تدعى أسبنيانا) غادرت القاهرة منذ أكثر من عشرين عاماً وأصبح مهجورا معرضا للبلاء، ويعلو باب المدخل الرئيسي لوحة حجرية منحوتة ومسجل عليها التاريخ الهجري ١٢٠٦هـ، ولقد اعتبرت وزارة الثقافة هذا المبنى ذات قيمة تراثية وأصبح مسجلاً لدى هيئة الآثار، وقد حددت المبنى والملحق الخاص به وتم عرض باقي الموقع للبيع دون اعتبار للعناصر المكملة للمبنى بالموقع. فالمبنى متعدد الطوابق ذو واجهات بالطراز العربي القديم وحل المهندس المصمم الدخول له مساحته الجانبية وللحديقة الخلفية بطريقة فنية رائعة حيث أنشأ منحدراً يربط بين الشارع والحديقة مستغلاً في ذلك الفراغات أسفل المنحدر كفراغات انتفاعية محددة بعناصر معمارية جميلة شكل (٩)، (١٠)، (١١)، (١٢). وحين وضعت هيئة الآثار يدها على هذا المبنى ووضعت حدودا له، واقتطعته دون مراعاة لجمال التكوين المحيط وتكامله مع المبنى الأصلي والملحق، وجاءت محافظة الجيزة فحجبت رؤية المبنى وتفاصيله والسور الجميل المحيط به بسور رخيص من الصاج تعلوه الإعلانات التجارية.

إن هذا المبنى والموقع المحتوى له لجدير بالدراسة العلمية المتأنية للحفاظ عليه وترميمه وربما إعادة توظيفه والفراغ المحيط به بما يتلاءم وطابع المكان وتميزه.

الموقع الثالث: منطقة القناطر الخيرية:

وضع حجر الأساس للقناطر الخيرية شمال القاهرة والجيزة في عهد محمد علي باشا والي مصر في عام ١٨٤٧ وتم الانتهاء من بنائها في عهد الخديوي محمد سعيد عام ١٨٦٠، واعتبرت لفترة طويلة أكبر عمل هيدروليكي مائي في العالم شكل (١٣).

وبمرور الزمن بدأت المنطقة المحيطة بهذه القناطر تشهد تحولاً وحركة وانتعاشاً حيث شيدت الفيلات ذات الطابع الخاص لموظفي الري وشقت الطرق وأقيمت لهم الحدائق الخاصة، كما شيد الوالي استراحة خاصة له في هذه البقعة الواقعة بين فرعي رشيد ودمياط وعمدت وزارة الأشغال إلى تشجير المنطقة وإقامة الحدائق العامة التي بلغت مساحتها ٢٥٠ فداناً وفي عام ١٩٣٦ شرع في بناء قناطر جديدة حيث ظهرت الحاجة لحجز مزيد من المياه أمام القناطر. وقد استغنى عن القناطر القديمة التي أصبح استخدامها قاصراً على أغراض المرور فقط [٤] وقد ظلت منطقة القناطر الخيرية متنزهاً قومياً ومزاراً سياحياً هاماً لقيمتها التاريخية وجمال الطبيعة فيها، إلا أن الزحف السكاني والاستخدامات الصناعية والتجارية غيرت الكثير
من الطابع المميز للمكان وطغت على الرقعة الخضراء وزرعت المباني الخرسانية الحديثة والمباني العشوائية شكل (١٤). ولحسن الحظ أنه ما زال بالموقع مبان ذات قيمة تاريخية

---

[٤] مجلة حورس عدد أبريل ١٩٩٧.

تحتاج للصيانة والترميم وربما إعادة التوظيف ومنها مبنى شركة الحليج والقطن شكل (١٥) والبوابات العريقة والشامخة وغيرها. ولابد من تحديد نطاق الفراغات المفتوحة ذات القيمة الجمالية واعتبارها محمية طبيعية.

التوصيات:

١) حث جهات الحكم المحلي على الالتزام بالحفاظ على طابع وهوية المواقع ذات القيمة التراثية وعدم إحداث تغيرات تُنقص من أو تشوه أو تدمر العلاقات البصرية في المحيط الأثري والمواقع ذات القيمة التراثية.

٢) اعتبار الفراغ المحيط بالآثار المسجلة حديثاً حرما لها يجب الحفاظ عليه والتعامل معه بأسلوب علمي واعي وليس بعقلية تجارية مادية أو استثمارية.

٣) تكوين جبهة علمية استشارية لدعم اتخاذ القرار الصائب في مثل هذه المواقع على مستوى المدن والأحياء على أن تضم هذه الجبهة المتخصصين في العلوم المتداخلة والمعنية بصيانة الآثار والحفاظ على المواقع ذات القيمة التراثية.
[آثاريين – مخططين – معماريين – منسقي المواقع].

٤) التوصية بالحفاظ على الأطلال والخرائب الأثرية كشواهد للتاريخ وحمايتها من الامتداد العمراني والعشوائيات واستغلالها كمزارات سياحية وإضافة محاكي لتلك المواقع كرسالة تثقيفية وتسجيلية. [مثل ميت رهينة في مصر – وموقع غزوة أحد في الحجاز].

المراجع:

١) ميثاق البندقية الصادر عن المؤتمر العالمي الثاني للمهندسين المعماريين والفنيين للنصب التاريخية – البندقية من ٢٥ إلى ٣١ مايو ١٩٦٤.

٢) "ثلاثية الإبداع المعماري" أ.د./ علي رأفت – مركز أبحاث انتركونسلت، القاهرة – جمهورية مصر العربية ١٩٩٧.

٣) "أبحاث من ندوة المدينة العربية" الأستاذ صفي الدين حامد – المعهد العربى لإنماء المدن.

٤) مجلة حورس عدد أبريل ١٩٩٧.

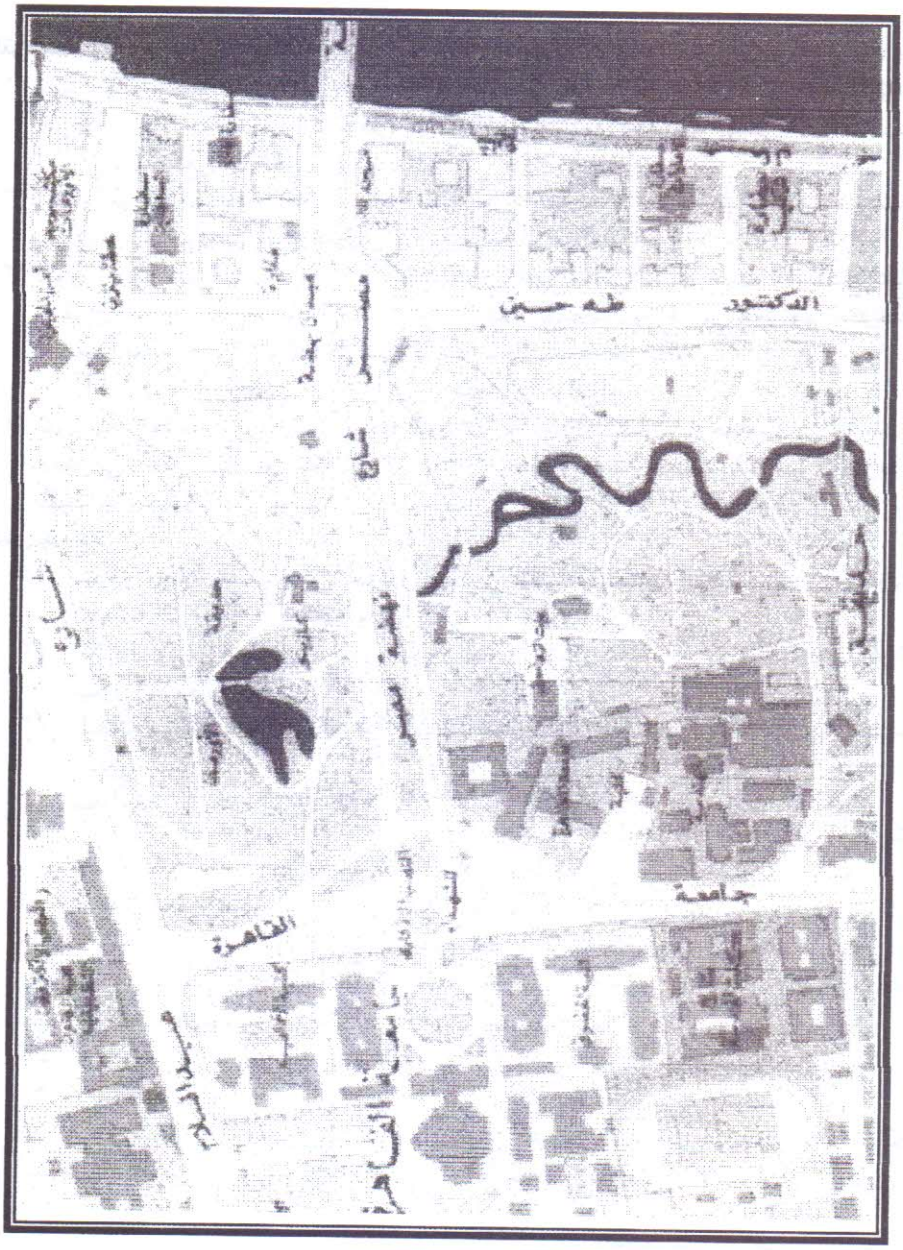

شكل (١) يبين الممر الرئيسي والمحور البصري الذي يربط بين تمثال نهظة مصر وجامعة القاهرة

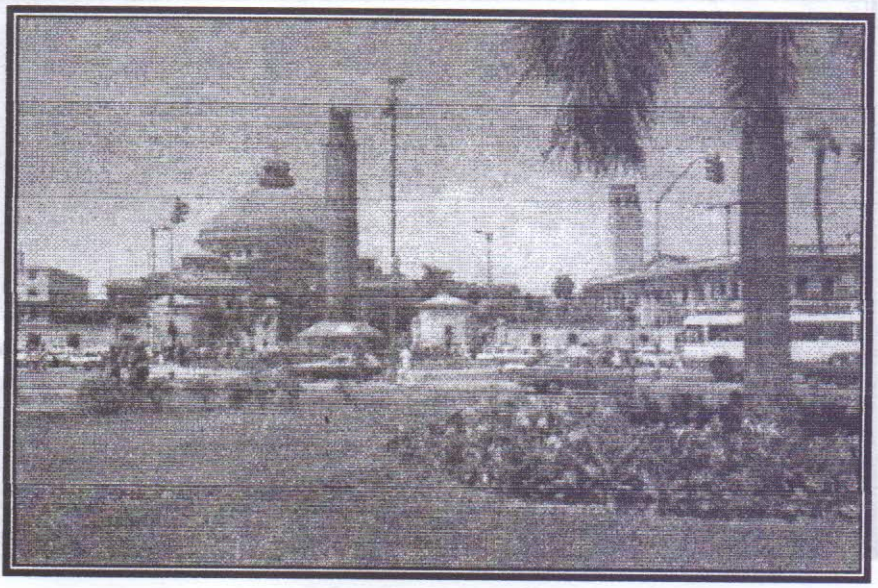

شكل (٢)ميدان الجامعة ويظهر فيه مبني قاعة الاحتفالات الكبرى والنصب التذكاري للشهداء

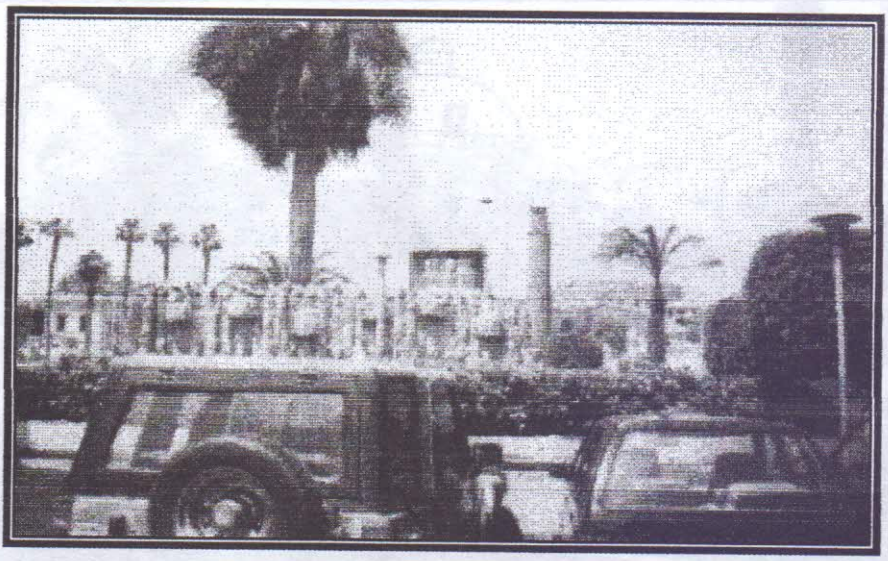

شكل (٣)ميدان الجامعة ٢٠٠٠ م

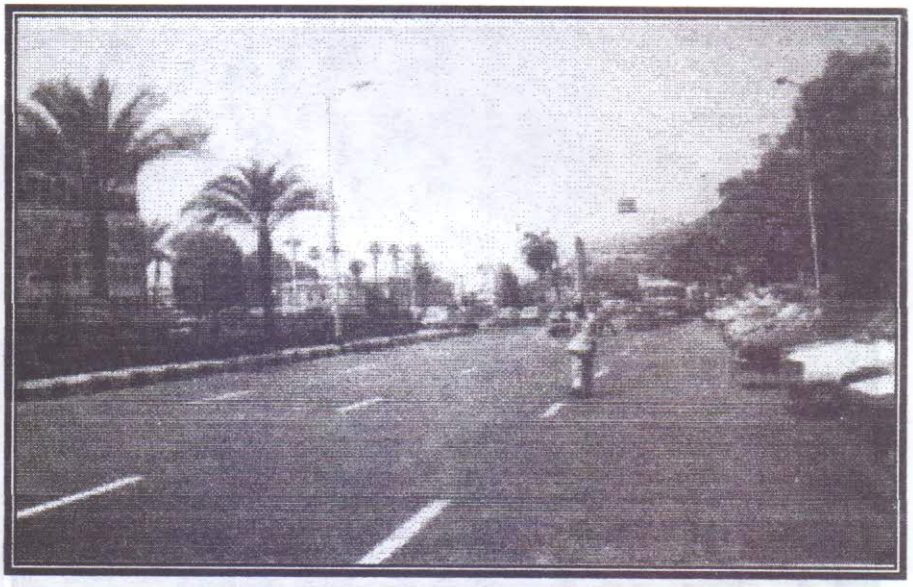

شكل (٤) مكان انتظار السيارات بعد تضييق رصيف المشاة ونزع الأشجار الجانبية

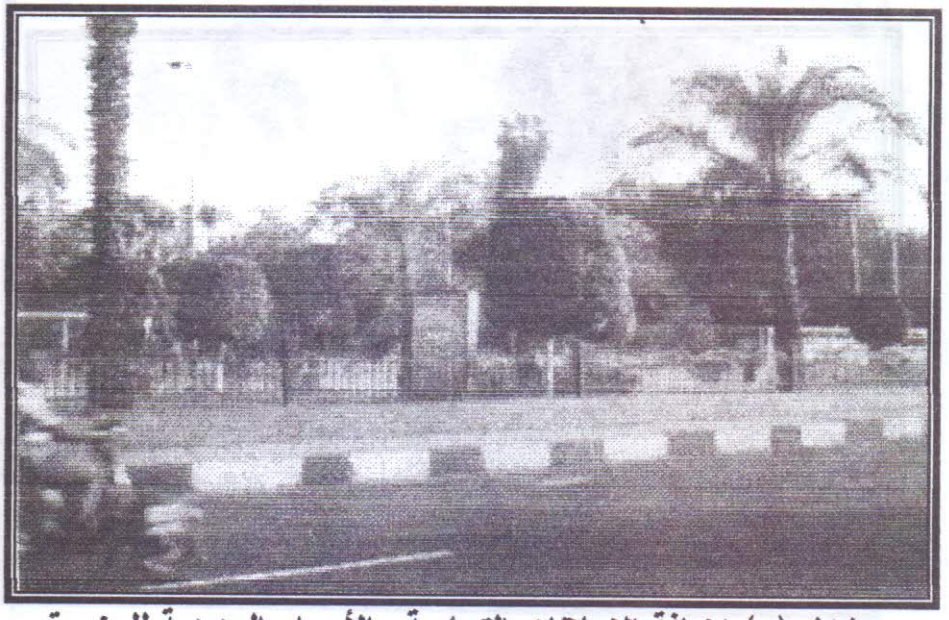

شكل (٥) إضافة الإعلانات التجارية والأسوار الحديدية للجزيرة الوسطي بشارع نهضة مصر

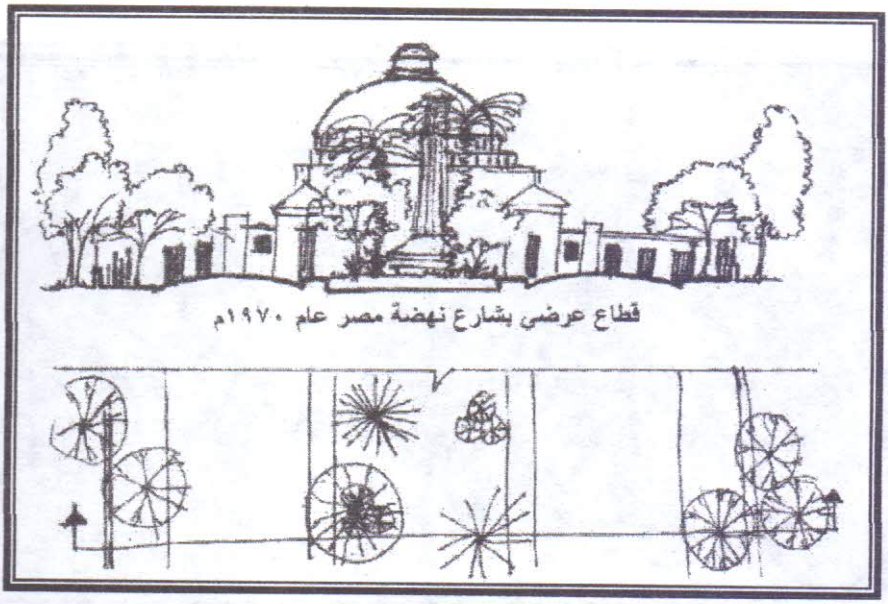

شكل (٦) مسقط أفقي يبين طريقة تنسيق الموقع بشارع نهضة مصر عام ١٩٧٠

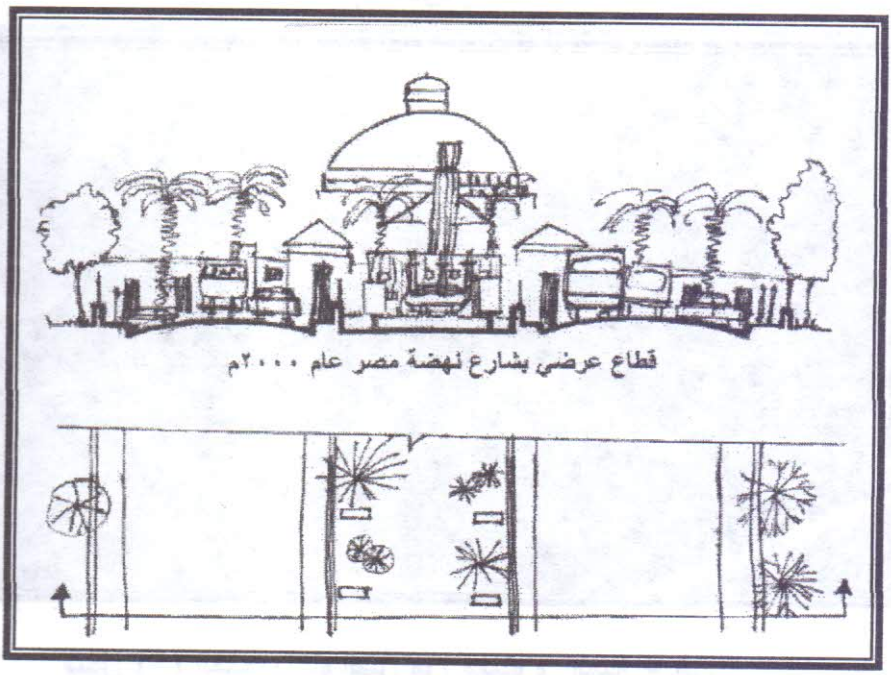

شكل (٧) مسقط أفقي لشارع نهضة مصر عام ٢٠٠٠ م

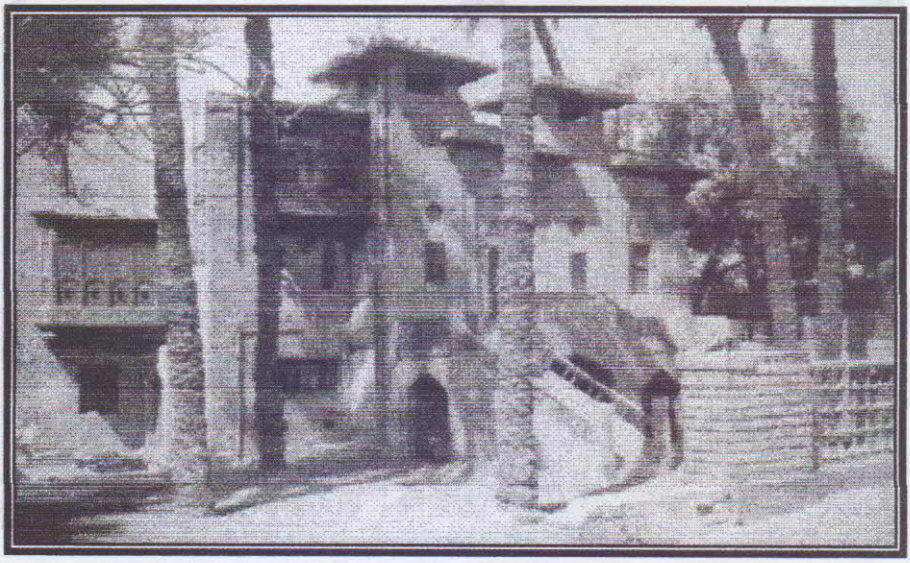

شكل (٨) مبنى له طابع وقيمة أثرية مقابل فندق
مينا هاوس

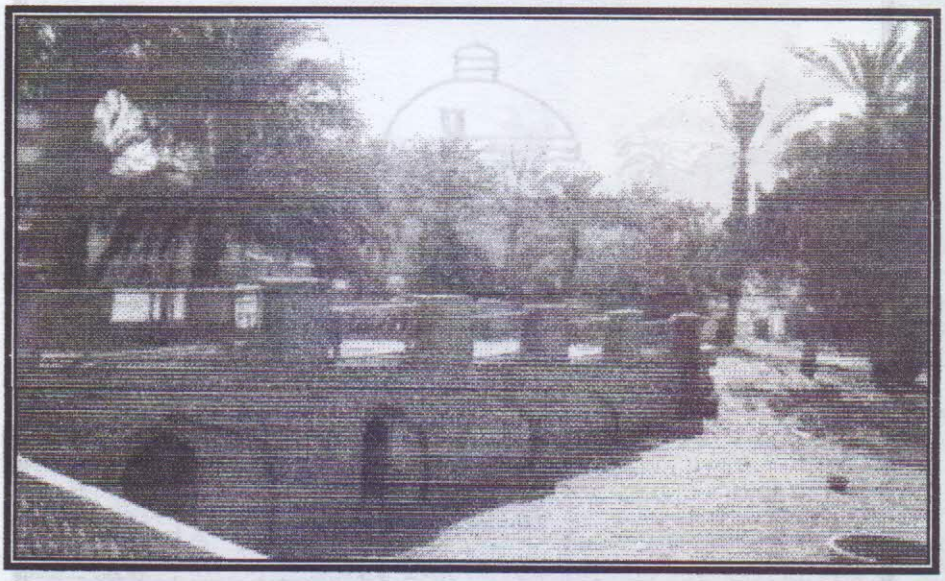

شكل (٩) المنحدر الواصل من مستوى الشارع إلي
حديقة المنزل

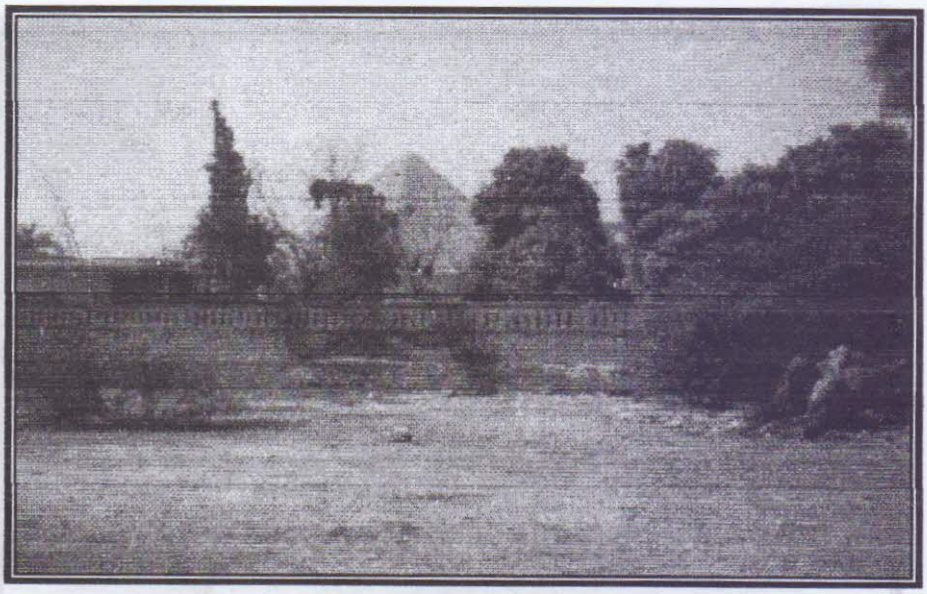

شكل (١٠) حديقة المبني الأثري ويبدو منها هرم خوفو

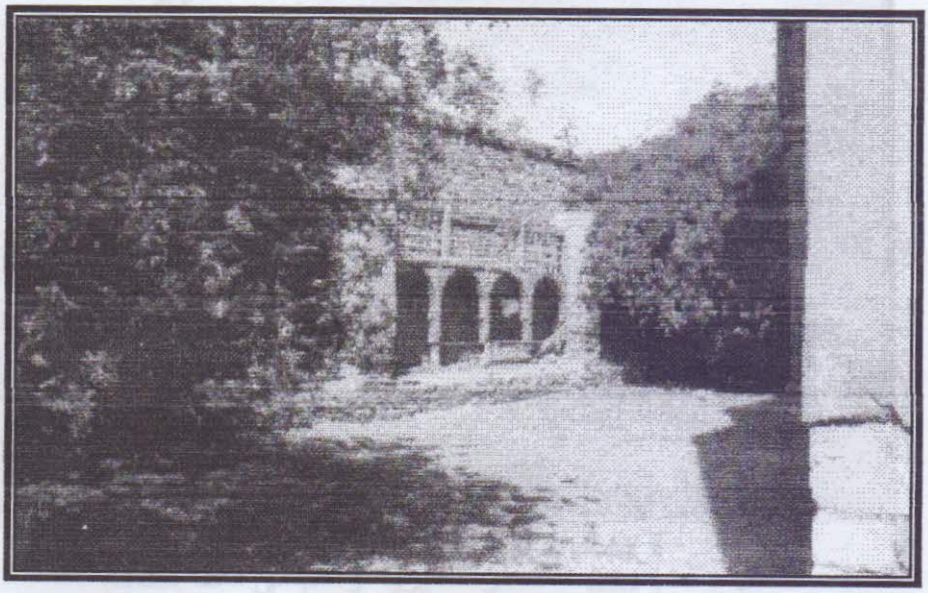

شكل (١١) السور الغربي لحديقة المبني الأثري وبه عقود خشبية

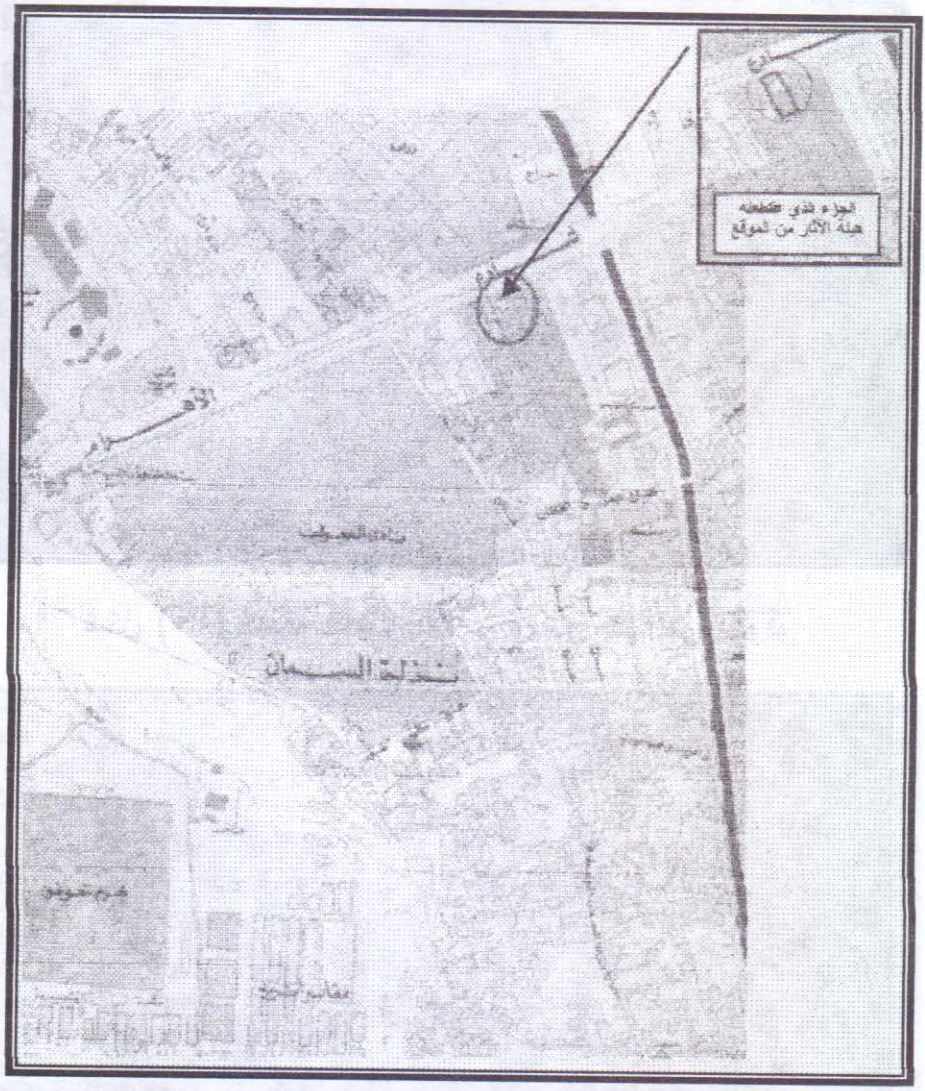

شكل (١٢) موقع المبني الأثري المقابل لفندق مينا هاوس في نهاية شارع الهرم بالجيزة

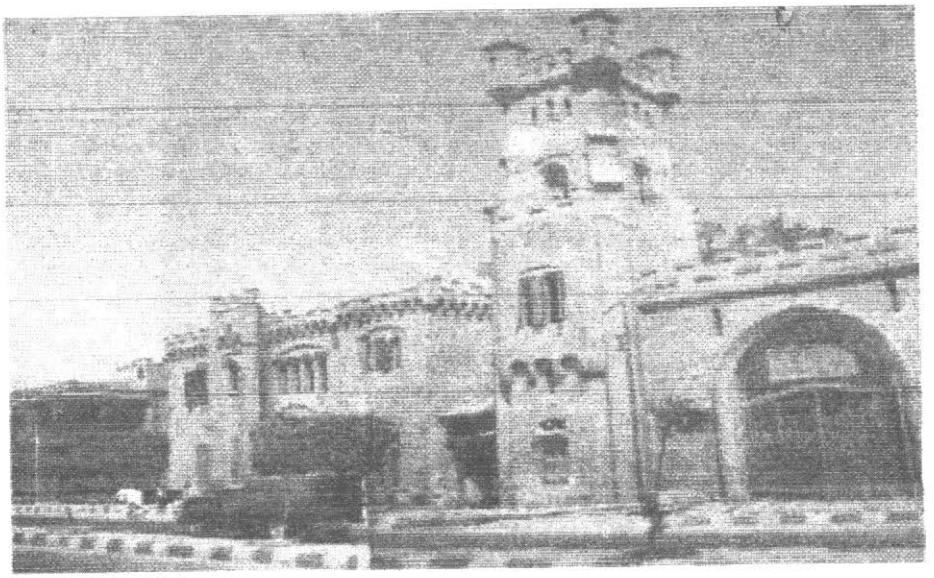

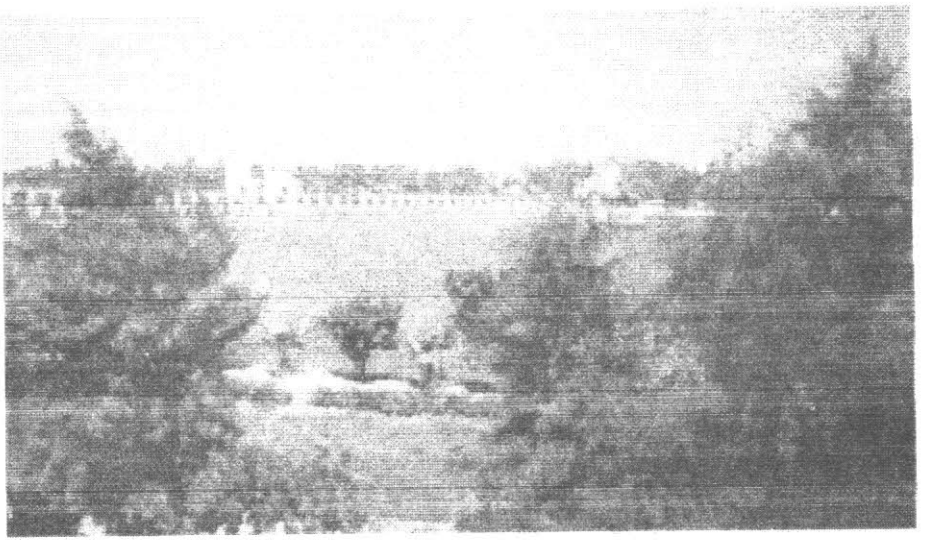

شكل (١٣) يبين القناطر الخيرية والمباني ذات الطابع المميز في المنطقة

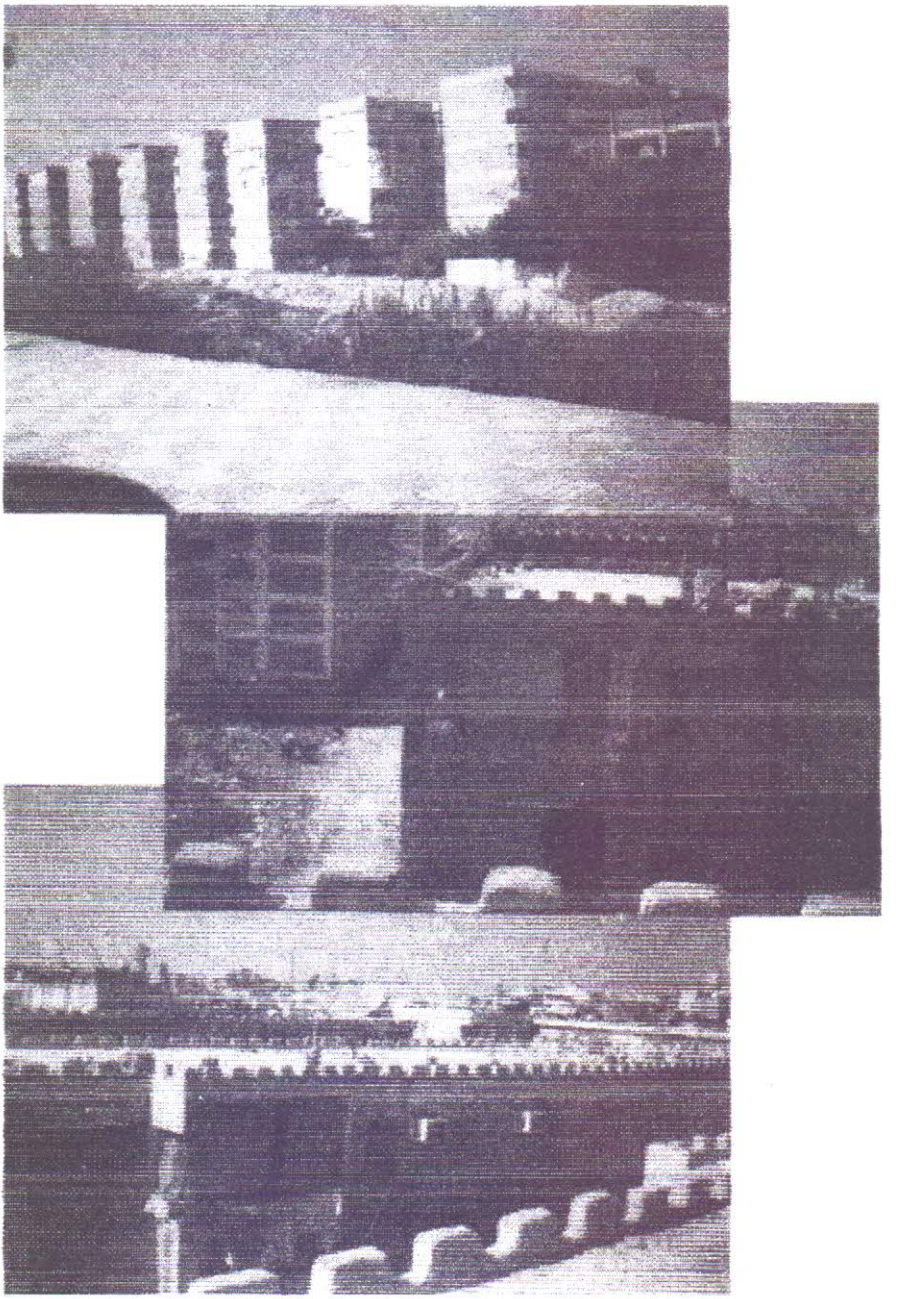

شكل (١٤) يبين مباني مستحدثة في منطقة القناطر الخيرية لا تتوافق والطابع المميز للمنطقة

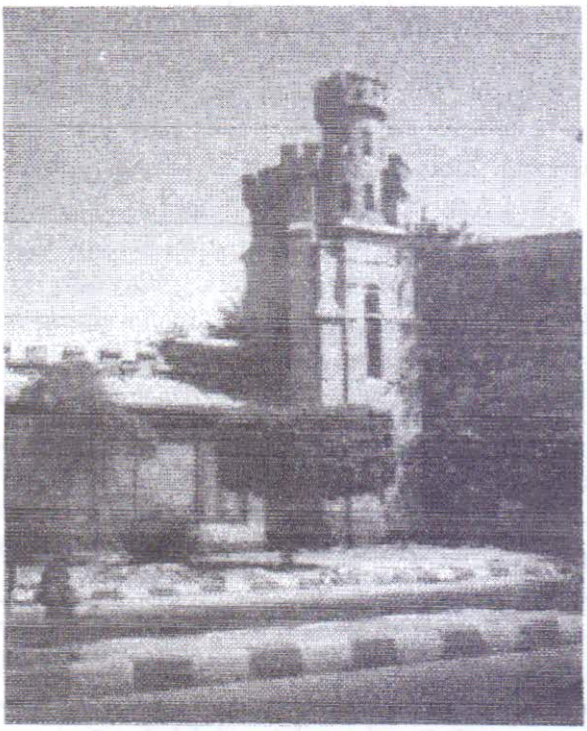

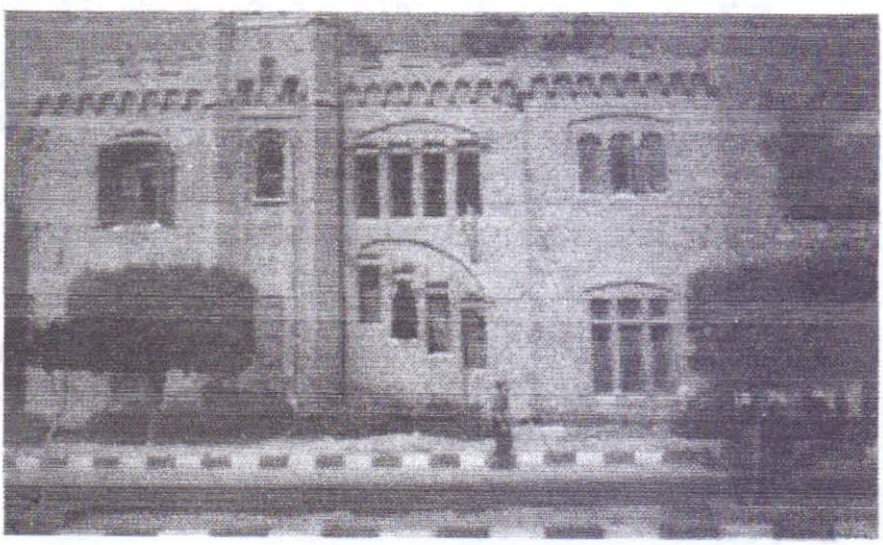

شكل (١٥) يبين واجهة مبني شركة الخليج والقطن بالقنطر الخيرية